**المحاضرة الثانية: المقاربة البنيوية**

قبل الشروع في عرض المقاربة البنيوية كاتجاه نقدي ظهر ليتجاوز الانسداد الذي عرفته أنظمة القراءة السياقية، وفشل مشروعها النقدي لابد من تحديد مصطلح البنية لغة واصطلاحا.

**الدلالة اللغوية لكلمة بنية:** تشتق كلمة بنية من الفعل الثلاثي بنى، وتعني البناء أو الطريقة، كما تدل على معنى التشييد، والعمارة والكيفية التي تشيد عليها ومعروف أنه في النحو العربي تقوم ثنائية المعنى والمبنى على الكيفية التي تشيد عليها وحدات اللغة، ولذلك الزيادة في المبنى هي زيادة في المعنى وكل تخير في البناء ينتج عنه تحول في الدلالة **.**

**الدلالة الاصطلاحية لكلمة بنية:** عرف مصطلح البنية كغيره من المصطلحات النقدية العديد من الاختلافات نتيجة ظهورها وتجليها في أشكال مختلفة لا تسمح بتقديم قاسم مشترك، لذا نجد جان بياجي في كتابه "البنيوية" وضع تعريف محدد للبنية «وتبدو البنية، بتقدير أولي مجموعة تحويلات تحتوي على قوانين كمجموعة (تقابل خصائص العناصر) تبقى أو تغتني بلعبة التحويلات نفسها، دون أن تتعدى حدودها، أو تستعين بعناصر خارجية».

يقدم جان بياجي تعريفا للبنية باعتبارها نسقا من التحولات لها قوانينها الخاصة، «علما أن من شأن هذا النسق أن يظل قائما ويزداد ثراء بفضل الدور الذي تقوم بههذه التحولات نفسها، دون أن يكون من شأن هذه التحولات أن تخرج عن حدود ذلك النسق، أو تستعين بعناصر خارجية، وبإيجاز فالبنية تتألف من ثلاثة خصائص هي الكلية والتحولات، والضبط الذاتي»، وهي كالآتي:

**الكلية**: هي مجموع العناصر الداخلية الخاضعة للقوانين المكونة للنسق ولا تقوم على (العنصر الواحد)، أو على (الكل) الذي يفرض نفسه على بقية العناصر المكونة للنص، وإنما تتمثل البنية من خلال العلاقات القائمة بين هذه الأجزاء.

**التحولات**: وهي جملة التغيرات التي تحدث داخل النسق، ذلك لأن البنية في تحول مستمر، وتغير يستجيب للقوانين الداخلية للنسق، ولا يلتفت إلى التأثيرات الخارجية.

**التنظيم (الضبط) الذاتي**: التحولات الحاصلة بين عناصر البنية الخاضعة للقوانين الداخلية للنسق، بمعنى أنها تنظم نفسها بنفسها حفاظا على وحدتها، مما يحقق لها صفة الانغلاق الذاتي.

ونخلص من خلال هذه الخصائص التي حددها بياجي بأن البنية تنحصر في ثلاثة عناصر فخاصية الكلية ومفادها أن البنية مكتفية بذاتها، ولا تحتاج إلى وسيط خارجي، بينما خاصية التحولات فهي توضح التغيرات داخلها، والتي لا يمكن أن تبقى في حالة ثبات لأنها دائمة التحول، أما خاصية التنظيم الذاتي فهي تمكنها من تنظيم ذاتها للمحافظة على وحدتها واستمراريتها.

**نشأة الاتجاه البنيوي عند الغرب:** يجمع الدارسون إلى أن الفضل في نشأة الدراسات البنيوية إلى عالم اللغة السويسري (Ferdinande de Sassur) فردينان دي سوسير نظرا للانتشار العجيب الذي حققته أراءه في التفريق بين اللغة والكلام، والدال والمدلول، وفي أولية النسق أو النظام على باقي عناصر الأسلوب، وفي التفرقة أيضا بين التزامن والتعاقب التي أسست لنشأة البنيوية، فاللسانيات الحديثة «أمدت هذه المقاربات النقدية بجهاز من المفاهيم دفعها إلى تغيير طرائق تعاملها مع النص الأدبي، بالنظر إلى بنياته، نظرة مغايرة لما كان عليه تاريخ النقد في السابق».

فقد أحدثت أفكار العالم اللغوي دي سوسير قطيعة إبستيمولوجية مع التفكير النقدي السياقي فــ «موضوع الألسنية الحقيقي والوحيد إنما هو اللغة في ذاتها ولذاتها»، وهو المبدأ الذي تبناه المنهج النسقي في قراءته للنص الأدبي فهو يسعى للكشف عن بنيته الداخلية وعلاقة عناصره اللغوية، وبذلك فهو يرى أنه لا وجود خارج حدود بنيته.ومنه أصبح تأثير اللسانيات في الدراسات النقدية انطلاقة جديدة للنقد النسقي، الذي استطاع أن يفرض معايير نقدية مختلفة ومغايرة مكنته من إزاحة سلطة السياق الخارجي في أثناء قراءة العمل الأدبي.

ولعل المدرسة الشكلانية التي كانت من أهم المدارس التي أسهمت بقوة في التأسيس للاتجاه البنيوي فـكثيرا ما «ما ارتبط استخدام مصطلح البنية في المؤتمر الذي عقده الشكلانيون الروس لعلوم اللسان في مدينة لاهاي سنة 1928»، ويرون أن «رومان جاكبسون هو أول من استعمل هذا المصطلح بمعناه الحديث وذلك في البيان الذي أصدره في أعمال المؤتمر سنة 1929»، وفي سياق آخر رفض الشكلانيون الروس فكرة استخدام الأدب لنصرة معتقدات معينة، ونادوا بضرورة اقتصار النظر على المضمون الجمالي للأدب؛ الشكل، وعدم الالتفات إلى أي مفاهيم أو أفكار أو أراء، وقد عبروا عن ذلك في مبدأين اثنين:

المبدأ الأول: ولخصه رومان جاكبسون في قوله: «إن موضوع علم الأدب ليس هو الأدب، وإنما الأدبية (Litterarite) »، وبذلك حصروا اهتمامهم في نطاق النص.

المبدأ الثاني: ويتعلق بمفهوم بالشكل، فقد رفضوا رفضا باتا ما كانت تذهب إليه لنظرية النقدية التقليدية من أن لكل أثر أدبي ثنائية متقابلة الطرفين، هي الشكل والمضمون، وأكدوا أن الخطاب الأدبي يختلف عن غيره ببروز شكله.

**أولا: رواد البنيوية في الغرب:** تمثل الأفكار التي طرحها دي سوسير في بداية القرن العشرين المحطة الأولى في تأسيس مفاهيم البنيوية، وذلك لأن آراءه في علم اللغة الداخلي وتمييزه بين اللغة كنظام واللغة كحدث فعلي يمارسه شخص معين هي أساس نشأة الدراسات البنيوية، ولعل من أبرز الآراء التي تناولها دي سوسير في طرحه «نظرته إلى اللغة على أنها شكل وليست مادة، فما دامت العلامة اللغوية تقوم على ثنائية الدال والمدلول (الصورة الصوتية)، والمدلول (الفكرة)، وأن العلاقة الجامعة بينهما هي علاقة اعتباطية فإن اللغة تعتمد على نسق الصوت في الكلمة الذي يتكون من أصوات متمايزة ليس لها علاقة بحد ذاتها بالمدلول، فقيمتها ليست في قيمة الصوت الذي تتكون منه وإنما في العلاقة بين الأصوات التي تقوم أساسا - لدى سوسير- على الفروق».

فالدال والمدلول لا وجود لأحدهما دون الآخر، فهما يشكلان الركيزة الأساسية في النظام، ومنه اعتبرت اللغة «نظام من العلاقات التي تعبر عن أفكار معينة (على حد تعبير سوسير نفسه)، نظام علامات مترابط ومنضبط تعرف فيه العلاقة باختلافها وتعارضها مع غيرها من العلامات داخل النظام اللغوي»، فالنظام يتشكل من العلاقات القائمة بين عناصر البنية، دون أن يعي ذلك تغير هذا النظام بتغير العناصر المتعالقة داخله.

أما الناقد الفرنسي رولان بارت (Roland Barthes) 1915- 1980 فــعلى الرغم من «تجاوزه البنيوية وما بعد البنيوية من مدارس نقدية»، غير أن اسمه بقي مرتبط بالمنهج البنيوي، هذا يعود إلى الأفكار التي جاء بها، فأصبحت معلما بارزا من معالم البنيوية هذه الآراء التي تتوزع على محاور العملية الإبداعية: (المبدع والنص،والمتلقي)، في الوقت الذي قام رومان جاكبسون بــ: «دراسات حول الفونولوجية وحول وظائف اللغة، وفتح باب البحث في الشعرية (Poeticite) في الاستقلالية النسبية للظاهرة الأدبية».

اهتم هؤلاء النقاد بلغة الأدب، فهي في نظرهم جوهر تكوينه، وأهملوا في دراساتهم الأفكار التي يتكون منها، ولا بالأحاسيس والآراء التي يعبر عنها، بل أولوا بالغ العناية بالجسد اللغوي للنص الأدبي، واتخذوا من اللغة منطلقا لهم في مقارباتهم النقدية، وليس مما وراء اللغة لا ترتبط مباشرة بمادة الأعمال الأدبية.

وهكذا تغدو مهمة الناقد البنيوي هي النظر إلى لغة النص الأدبي، لتبين مدى تماسكها وتنظيمها المنطقي، ومدى قوتها وضعفها بغض النظر عما تحمله عما يحمله المضمون من آراء وأحاسيس فهو يرى أن الظاهرة الأدبيـــة من الجانب اللغوي و الفني والجمالي.

**ثانيا: آليات الناقد البنيوي**:

أما عن آليات الناقد البنيوي، أو كما يسميها بسام قطوس مبادئ أو مفاهيم البنيوية التي يشكل حضورها على المستوى التطبيقي ركيزة بارزة ومن أهمها:

**اللغة والكلام (Langue- Parole):** يرى البنيويون أن دراسة اللغة يجب أن تكون في بعد إنتاج النص، بحيث يمكن فيها تحليل العلاقات المتزامنة بين أجزائها المكونة من التركيز على الجوانب التاريخية التعاقبية التي تهتم بتغير اللغات حسب الأزمنة، «فهي تضغط على الكلام بأنظمتها، ويضغط الكلام على اللغة بالابتكار، واللغة هي المادة الخام التي يستخدمها الأدباء وسواهم شعرا أو نثرا في حياتهم العملية وفي حياتهم التخيلية، فهي تستخدم في الدرجة الصفر على رأي رولان بارت في التواصل وتستخدم في درجات أخرى متفاوتة حسب قدرة المبدع بطرق مختلفة».

وأما الكلام فيشمل على «التجليات الفعلية للنظام في فعلي النظام والكتابة، ومن اليسير الخلط بين النظام وتجلياته»، ولهذا أشار العديد من النقاد إلى العلاقة بين اللغة والكلام ورأوا بأن «الفصل بين اللغة والكلام ليس إلا فصلا لغايات الدراسة العلمية، ولكن العلاقة بينها تمثل علاقة الكل بالجزء، فاللغة هي الكل، والكلام هو الجزء ... واللغة عنده نظام اجتماعي مستقل عن الفرد ولا شعوري، إذ هـي تمثل مجموع القوانين والقواعد العامة التي تتحكم في إنتاج الكلام، وهـي تمثل السلطة التجريدية المتعالية التي يستمد منها الكلام اختياراته الفعلية، أما الكلام فـهو التطبيق الفعلي لهذه القوانين والقواعد العامة والمستوى الفردي المشخص منها، ولذلك فالكلام يتنوع بتنوع الأفراد»، وبهذه العلاقة أثرت البنيوية في الأدب ونقده.

**نظام العلاقات (Relation System):** ما يحكم هذه العناصر ومستوياتها، ويربط بعضها ببعض هو ما يطلق عليه النظام، وأن أي خلل في العلاقة بين العناصر نفقد النظام توازنه، فاللغة في نظر البنيويين «نظام من العلاقات والتعارضات التي يجب أن تتحدد عناصرها على أساس شكلي وتخالفي، ولعل أهم الدروس في الثورة "الفونولوجية" بالنسبة لليفي شتراوس هي التعامل مع العناصر باعتبارها كيانات مستقلة، وتركيزه بدلا من ذلك على العلاقات بين هذه العناصر». فإذا كان النظام اللغوي هو: «سلسلة من الفروق الصوتية ترتبط بسلسلة من الفروق في الأفكار»، فإننا نجد أن كل عنصر من عناصر النظام يكتسب قيمتهمن علاقته مع غيره من العناصر الأخرى.

**التزامن والتعاقب:** مفهوم التزامن (Synchronie) يعني «مجموع الظواهر وهي في حالة سكون أو ثبات، أما مفهوم التعاقب (Diachronie) فيعني مجموع الظواهر نفسها وهي في حالة صيرورة»، وإذا كانت «اللغة تسمح نسبيا بدراستها تزامنيا فإن دراسة الظواهر الاجتماعية تتطلب الربط بين التزامني والتعاقبي»، وبذلك فإن الظواهر الإنسانية بما فيها الإبداع الأدبي لا يمكن عزلها عن تاريخها فهي تعتبر عن زمن وتاريخ معينين، وإذا ما أردنا نقل هذين المصطلحين من حقل اللسانيات إلى حقل النقد، إن ثمة نوعين من أنواع العلاقات التوزيعية:

**العلاقات التركيبية (التتابعية):** تتعلق بإمكانية التأليف، وهي تعني دخول وحدتين في علاقة ذات سمة تبادلية، تنافرية أو غير تنافرية.

**العلاقات الاستبدالية:** وهي العلاقات التي تتحدد إمكانية الاستبدال، والتي تنطوي على أهمية خاصة في تحليل النظام، إن معنى أي وحدة يعتمد على الاختلافات بينها وبين وحدات أخرى كان من الممكن أن تحل محلها في إحدى المتتاليات.

**الحضور الغياب:** فيما يخص طبيعة العلاقات، علاقة الحضور والغياب، فلا تأتي إلا إذا رجعنا إلى الأداة (اللغة) «وعندما تصاغ هذه القاعدة اللغوية في إطار جمالي نقدي فإنه يترتب عنها التمييز بين نوعين من العلاقات التي يمكن ملاحظتها في العمل الأدبي، علاقات تقوم بها العناصر الحاضرة وأخرى تقوم بينها وبين العناصر الغائبة»، وقد نبها سوسير إلى هذه القضية الخطير في أكثر من مناسبة، «وقد ظهر التطور الأمثل لثنائية الدال والمدلول لدى سوسير فيما يسمى بعلائق الحضور والغياب».

هذه الفكرة تمثلتها جهود البنيويين في بحثهم الدلالي عن ظاهرة النص وباطنه، مما أعطى لمفهوم الدال والمدلول دفعة جديدة فنجد، رولان بارت يرفض فكرة الصلة الثابتة بين الدال والمدلول حين ذهب «أن الإشارة (تعوم) سابحة لتغري المدلولات إليها لتنبثق معها وتصبح جميعا (دوال) أخرى ثانوية متضاعفة لتجلب إليها مدلولات مركبة، وهذا حرر الكلمة، وأطلق عنانها لتكون (إشارة حرة)، وهي تمثل حالة (حضور)، في حين يمثل المدلول (حالة غياب) لأنه يعتمد على ذهن المتلقي لإحضاره إلى دنيا الإشارة». هذا ما يتطلب وجود قارئ حذق قادر على أن إيجاد العلاقة الجدلية القائمة بين الدال والمدلول لإحضار الدلالة.

لم يكن النقد الحديث بمنأى عن التطورات السريعة الحاصلة في ساحة الأدب النقد العالميين، فقد تلقى النقاد العرب المحدثون البنيوية كما تلقوا غيرها من الاتجاهات والمناهج النقدية في فترة السبعينات، وهذا التلقي تجلى من خلال من خلال تعريب وترجمة العديد من الدراسات النقدية، ومن أبرز هؤلاء نذكر: كمال أبوديب، وسعيد علوش، ومحمد مفتاح، ومحمد بنيس، وعبد المالك مرتاض، وجابر عصفور، ويمنى العيد، وسعيد يقطين، وغيرهم.

فكمال رائد من رواد البنيوية في النقد العربي الحديث الذين أصلوا لها، فحمل على عاتقه الترويج لها والتنظير أيضا، وهذا ما تجسد في كتابه "جدلية الخفاء والتجلي"، وهو عبارة عن دراسة بنيوية في الشعر، بالإضافة إلى إصداره كتاب آخر عنوانه "البنية الإيقاعية للشعر العربي".

فـفي كتابه الأول يقدم تعريفا لبنيويته قائلا: «أنها ليست فلسفة لكنها طريقة في الرؤية ومنهج في معاينة الوجود، ولأنها كذلك فهي تثوير جذري للفكر وعلاقته بالعالم وموقفه منه وبإزائه في اللغة، لا تغير اللغة، وفي المجتمع لا تغير البنيوية المجتمع، وفي الشعر لا تغير البنيوية الشعر، لكن، ... المكونات الفعلية للشيء، والعلاقات التي تنشأ بين المكونات، تغير الفكر المعاين للغة والمجتمع والشعر، وتحوله إلى فكر متسائل قلق متوتب، ومكنته متقض، فكر جدلي شمولي في رفاهة الفكر الخالق وعلى مستوى من اكتمال التصور والإبداع».

فـمن هذا الفكرة المقتضبة ندرك أن البنيوية ليست إلا تثوير جذري للفكر، وأنها ثورة على المجتمع واللغة والشعر، إذ تغيـر كل ذلك وتحوله كما قال إلى فكر متسائل وقلق.

كما يصرح كذلك كمال أبوديب أنك: «توظيف منظورا يسهم في تشكيله عدة تيارات منها: التحليل البنيوي للأسطورة كما هي عند ليفي شتراوس في الأنثروبولوجية البنيوية، والتحليل الشكلي للحكاية كما هي عند فلادمير بروب، وناهج تحليل الأدب المتشكلة في إطار معلومات التحليل اللغوي، والدراسات اللسانية والسيميائية، والمنهج البنيوي التكويني النابع من معطيات الفكر الفلسفي عند لوسيان غولدمان»، كلها اتجاهات كبيرة متعددة المشارب، ومتنوعة الخلفيات الفكرية والفلسفية.

كما نجد الناقد الحداثي عبد الله الغذامي الذي تبنى البنيوية التشريحة في كتابه "الخطيئة والتكفير"، «وخير وسيلة للنظر في حركة النص الأدبي، وسبل تحرره هي الانطلاق من مصدره اللغوي، حيث كان مقولة لغوية أسقطت في إطار نظام الاتصال اللفظي البشري».

ومنه نرى أن الغذامي يمثل البداية التاريخية للمشروع النقدي الحداثي، والمتصفح لكتابه "الخطيئة والتكفير"، يلاحظ أنه يعتمد في كتاباته النقدية على نصوص (جاكوبسون، وبارت، ودريدا، وتودوروف، وليتش، وغيرهم)، وهي المرجعيات المستعارة لديه التي لا تكاد تفارقه في مساره النقدي.

أما الناقدة يمنى العيد فهي تعتبر من النقاد الأوائل الذين اعتنقوا المنهج الاجتماعي، لكن سرعان ما ارتكزت على الطروحات البنيوية التي كانت منتشرة في الساحة النقدية الغربية، وتطعيم نظراتها وآرائها الذاتية بمفاهيم سوسيرية، تقول: «إن قراءتي لأعمال سوسير أو لمحاضراته حول اللسانية شكلت منطلقا معرفيا أساسيا في ما يمكن تسميته بالمرحلة الثانية من تجربتي النقدية».

فهي تنطلق من مفهوم سوسير للعلامة وتمييزه بين اللغو والكلام، ثم تنتقل للحديث عن مفاهيم البنيوية التي حصرتها في في أربعة عناصر: (النسق، والتزامن والتعاقب، ومفهوم الطابع، اللاوعي للظواهر أو الآلية)، وإذ هي تشير إلى هذه المفاهيم إنما تريد من خلالها معرفة النص الأدبي وعزله عن ما هو خارج عنه.